مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

صدى الأزمة في مخيال العامة بالمغرب الأوسط الزياني "الاستنجاد بالمعتقد الخرافي أنموذجا"

The Impact of the crisis on the public's imagination in the middle Maghreb during the Ziyani era: contributions to the growth of the superstitious belief"

د. البشير بوقاعدة
bougaadabachir@yahoo.com
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

تاريخ الإرسال: 2020/05/28 تاريخ القبول: 2021/12/13

I. الملخـــص:

يكشف هذا المقال عن مستويات الوَقْع الذي تتركه الأزمة بكل تمثّلاتها في مخيال العامة ببلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني، حيث نوجّه عنايتنا البحثية بشكل مركّز نحو تأثيرها في السلوك والذهنيات إذا تكرّرت وتوالت صنوفها على حياتها مهما كان مصدرها أو المتسبّب فيها طبيعية كالقحوط والأوبئة والمجاعات أو بشرية جرّاء آثار الحرب، كردّ فعل يترجم سلوك التصدي لمؤثراتها أو التخفيف من حدّتها. وتكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تطرق مسألة حساسة من مسائل التاريخ الاجتماعي للجزائر في الفترة الوسيطة باعتبارها تسلّط الضوء على طبيعة التحولات على مستوى ذهنية الفرد وتصوراته الفكرية التي ترجمها بسلوكات أثّرت على معتقده الديني وسلامة تفكيره حين غرق في بحر الخرافة، ولاذ بمعتقدات لا تتناغم والطرح العلمي. أمّا بشأن أهمّ نتيجة

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

توصّلنا إليها، فهي أنّ استنجاد العامة بالأمور الغيبية دون وعي وتغييب للعقل كان في غالبه لتجاوز الواقع المتأزم الذي عايشه كمتنفّس وسبيل للنجاة.

الكلمات المفتاحية: الخرافة؛ العامة؛ الأزمة؛ الكوارث؛ الحرب.

ABSTRACT:

Through this article, we are dealing with a problematic issue related to the level of impact that the crisis, in all its forms, has on the public's imagination in the middle Maghreb during the Ziyani era, where we direct our research attention in a focused manner towards the impact of the crisis on the behavior and mentalities of the public, if the manifestations of those crises recurred, whether it was of a natural cause or source, such as drought, epidemics, famines or of a humain cause due to the aftermath of the war and its impact, especially the issue of its contribution to the growth of superstitious beliefs in the imagination of the public, in a behavior that expresses a manifestation of addressing and confronting its effects to avoid its negative impact on his life.

Keywords : superstition; common people; crisis; disasters; war.

1. المقدمـــة:

بذلت الجماعات البشرية بالمغرب الوسيط جهدها بكل ما أمكنها في سبيل حفظ وجودها واستمراره، وكان هذا الجهد يُفعَّل بشكل أكبر خلال فترات الأزمة وأوقات المحن خصوصا إذا تتالت مظاهرها وتكررت. وبين ثنايا تلك الأزمات وُلِدت معتقدات ضالة وسادت أوجه من التفكير الخرافي في مخيال بعض الفئات الاجتماعية، ذلك أنّ من لم يجد وسيلة فعالة لدفع الخطر الذي وقع بين مخالبه قد يتشبّث بأي سبيل للنجاة حتى ولو كان حبل الخرافة. وكان المغرب الأوسط في العهد الزياني عيّنة من العينات التي

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

يصدق في حقها ذلك، فقد تتالت مؤثرات النوائب والأزمات على حياة ساكنته وتناسلت، وهدّدت وجودها وعصفت باستقرارها، سواء كانت جرّاء مظاهر الصراع العسكري الذي تغذيه الأطماع التوسعية ومشاريع السيطرة وأوجه التمرّد والانتزاء، أو المخلفات السلبية التي ترمي بها الكوارث الطبيعية على حياتها وتأثيراتها على أمنها الغذائي واستقرارها الاجتماعي، فكانت ظرفية الخوف والعجز عن مواجهة مشكلات الحياة مناخا مناسبا لتعطيل حاسة العقل وتقييد الفكر بأغلال معتقدات خرافية في مسعى دفع الضرر ومناهضته. في هذا الاطار تأتي هذه الدراسة لتعالج اشكالية علاقة الأزمة بالفكر الخرافة والمعتقد الباطل الذي شاب سلوك انسان المغرب الأوسط الزياني وبخاصة شريحة العوام، ومكانة الأزمة ضمن العوامل المساعدة على نمو الخرافة في ذهنياتهم، فإلى أي حدّ أثّرت الأزمة في سلوك انسان المغرب الأوسط؟ وما طبيعة الأثر السلبي الذي تركته في مخياله؟ وإلى أي حدّ أسهمت في دفعه للاستنجاد بالفكر الخرافي لتجاوز مخلفاتها والتعايش مع مؤثراتها السلبية المتناسلة على واقعه؟ وفيما تتجلّى ألوان المعتقد الخرافي الذي اصطبغت به سلوكاته تحت وقعها؟

وعلى أساس أنّ أهمية هذا الموضوع تكمن في كونه يعالج اشكالية لم تفصل بشأنها الدراسات التاريخية بشكل جذري و لم تفِ حقها من الدراسة والمباحثة بصورة شاملة، جاءت هذه الدراسة كمحاولة لإعادة النظر في بعض السلوكات التي مارسها عوام المغرب الأوسط الزياني تحت قهر الأزمة بكل تمثلاتها، وذلك من منظور تاريخي يبحث في طبيعة المسببات ومظاهر المؤثرات، من أجل بناء تصور بحثي جديد للظاهرة من شأنه أن يُشكّل إضافة إلى حقل البحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب الأوسط على ضوء مقارباته البحثية ونتائجه المتوصل إليها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

على ما احتفظت به لنا النصوص المصدرية من مادة خبرية، وما اهتدى إليه أهل البحث من مقاربات تمسّ جوانبا من روح الاشكالية، واستعانة بمنهج الوصف والتحليل والاستنباط والاستنطاق، نأمل أن نوفّق في إخراج هذا الموضوع في حلة بحثية تكشف قدرات الأزمة في توجيه السلوك والتأثير في الذهنيات إلى درجة إغراقها في بحر الخرافة وضلال المعتقد، وتربط بين بعض الحلقات المفقودة من اشكاليات تاريخ الأزمة بالمغرب الأوسط ومخلفاتها على الذهنية والسلوك.

2. أثقال الأزمة في حياة المجتمع:

1.2 الحروب والفتن أزمة قاهرة:

لعلّنا لم نأت بجديد، إذا قلنا أنّ مظاهر الصراع العسكري بحروبه وفتنه، مثّلت سمة بارزة في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الزياني، فما كانت نار حرب تخمد حتى يشتعل فتيلها في فترة لاحقة، ولا يكاد جرح صراع عسكري يلتئم حتى يُفتح آخر من جديد. ولسنا هنا بصدد رصد سيرورة الأحداث السياسية والعسكرية بقدر ما نروم التوقف عند مستويات الأثر السلبي الذي ترمي به الحرب في حياة الساكنة، باعتبار أن وقعها على حياتها قويا وبليغا، ولنتبيّن كذلك طبيعة السلوك الذي تشبّث به عناصرها للتخفيف من أثرها على حياتهم أو للحدّ منه في المحطة البحثية التي تليها.

لقد تنوعت أسباب الحرب وتعدّدت أطرافها وتناسلت مظاهرها خلال العهد الزياني سواء كان صراعا داخليا أو خارجيا دفاعا أو هجوما، وكان من أبرز تجلياتها على حياة الدولة ما أفضى إليه واقعها من تمزّق سياسي اصطبغت به بعض فترات الحكم على غرار الفتنة السياسية الداخلية التي دبّت في جسم الجهاز الحاكم بين أبي حمو موسى الثاني (760–791هـ/1359–1389م) وابن عمه أبي زيان سعيد التي دامت ما ينيف عن

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

عشرين سنة بداية من سنة 762هـ /1360م[1]. ولا يمكن أن يخفى علينا الاضطراب الذي يفرزه ذلك التمزق السياسي ووقعه السلبي في حياة المجتمع.

بالإضافة إلى التأثير السلبي على مساحة المجال الجغرافي في بعض الفترات في ظل النشاط التوسّعي الذي انتصبت له قيادات الدول الجارة الحفصية والمرينية على حساب الممتلكات الزيانية، خصوصا النشاط المريني الذي ظلّت عملياته تتناسل على مجالها وأبرزها الحصار الطويل الذي ضيّق على تلمسان وممتلكات بني زيان، حيث عانى أهلها تحت سقفه كثيرا وضاقت بهم السبل مدّة ما يربو عن سبع سنوات (698–706هـ/ 1298–1307م)، وهلك على اثره خلق عظيم بسبب الخوف والجوع والقتل. بل بلغ الأمر إلى سيطرة الخصوم على تلمسان عاصمة الدولة كما حدث سنة 735هـ/1335م[2]. ناهيك عن ما صاحب هذه الحركة العدائية الخارجية من مظاهر الانتزاء والنزعة الاستقلالية لدى بعض العناصر القبلية، ممّا أسهم في انكماش المجال السياسي الزياني وتقلّص حدود السلطة إلى غرب مدينة الجزائر، فأصبح ذلك المجال تحت سلطة القبيلة أحيانا، وطورا آخر تمدّ إليه القيادة المرينية أو الحفصية سلطانها[3]. وهو ظرف

---

[1]– ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج7، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421هـ/2000م، ص170.

[2]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص170، 220، ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ/2008، ص235، الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تح، جعفر الناصر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ص124.

[3]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص569.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

يوحي بواقع مرير عايشته الساكنة نتيجة مخلفات الحرب المتنوعة في ظل ما يطالها من صنوف القتل والسبي والنفي والتشريد، ويلحق ممتلكاتها من نهب وتخريب.

كوجه من أوجه تعبير العامة[1] عن قلقها على مصيرها ورفضها للواقع البائس الذي تعيشه خلال ظرفيات استثنائية خصوصا إذا عجزت السلطة عن توفير متطلباتها وتحقيق أمنها جراء غزوات الخصوم وغاراتهم على مجالاتها أو بسبب السياسة الضريبية المجحفة التي تنتهجها السلطة لجبر كسر الخزينة لتنفيذ مشاريعها الحربية الدفاعية والهجومية، كانت تثور ضد القيادة الحاكمة وتتحالف حتى مع خصومها، حيث ثارت العامة ضد السلطان الزياني عبد الله الأول ابن ابي حمو الثاني (800–803هـ/1397–1400م)، عندما ناصرت العناصر المعارِضة للدولة ووقفت إلى جانب بني مرين في جهدهم لخلع السلطان[2]. كما شكّل أهل ندرومة حلفا مع فقراء جبل مطغرة الواقع على بعد ستة أميال من المدينة ضد ملك تلمسان حين ضاقوا ذرعا من حياة الفقر والخصاصة وسياسة الظلم والجور[3]. وقد لخّص ابن خلدون الوضع المتأزم الذي عاشته الدولة الزيانية

[1]– نقصد بالعامة: الشرائح الاجتماعية الدنيا التي تمثل سواد المجتمع وغالبيته، أو الذين يعرفون بجمهور الناس، بوتشيش إبراهيم القادري، اسهامات في التاريخ الاقتصادي–الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة جامعة مولاي اسماعيل، المغرب، 1997، ص105.

[2]– ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج2، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1322هـ/1904م، ص361، ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج4، تح، كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010، ص93.

[3]– الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص43.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

في بعض فتراتها في قوله: "لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة، ما أصاب قومهم من الشتات بأيديهم وأيدي عدوهم"[1].

قصارى القول، أنّ مظاهر الفتن وألوان الحرب التي شهدها المغرب الأوسط الزياني مُهدِّدة الوجود الانساني، ساهمت بشكل فاعل في ارهاق الدولة وإضعاف أحوالها وسلطتها المركزية وتقليص حدودها السياسية، كما لعبت دورها في فترات معينة في اضعاف هيبة الدولة في نفوس الرعية. وهو الوضع الذي أسهم بدوره في تضخم أثقال معاناة المجتمع سيما شرائحه المعوزة حين تراجعت أحوالها من السيئ إلى الأسوء، واستعصى عليها تحسين أحوالها المعيشية. فالخراب والدمار لا ريب كان قرين الحرب، والفوضى أبرز مخلفاتها. ومن الثابت أنّ شريحة العامة أكثر فئات المجتمع تضرّرا زمنها، وأضعفها تعايشا مع واقعها وأقلّها حيلة للخروج من مأزقها. فإذا أثّرت الحرب سلبا على المنظومة الانتاجية في شموليتها ستعجز العامة عن الصمود تحت وطأتها وتكون حياتها أكثر تهديدا، وما دامت الحرب تستترف جزءا معتبرا من الأقوات وأحيانا تلتهمها بأكملها، فإنّ العامة لا محالة ستعجز عن ضمان أمنها الغذائي وتحصيل قوتها اليومي فيكون النذير بفنائها. ومن ثمّ، أثر مناخ الاضطراب بشكل عميق في ذهنية العامة؛ ذلك أنّه وسّع من حدود دائرة مخاوفها حيال فواجع الحرب المفاجئة حين تزعزعت ثقتها في الدرع السلطوي الذي تحتمي تحت جناحه من آثارها، وارتفع مستوى مادة القلق في مخيالها حول مصيرها. وهو الظرف الذي أجبر شريحة عريضة من العوام على الاحتماء بالغيبي والهروب من الواقع إلى الوهم تخفيفا من حجم الألم، والاعتقاد بالخوارق

[1]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص569.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

والاستنجاد بالعراف والمشعوذ وقدراته الغيبية الوهمية، والاستئناس بممارساته السحرية[1]. ومن ثمّ ضرورة التنويه بمبدأ التلازمية بين طبيعة الظرفية ومخلفاتها، وألوان السلوك الخرافي الـــمُعبَّر عنه كصورة من صور الرفض وسبيل من سبل التجاوز والخلاص.

2.2 مؤثرات الكوارث الطبيعية، وجه من أوجه الأزمة:

لم تكن الحرب بمخلفاتها تشكّل بمفردها عائقا حال دون تحسين العامة أحوالها ورفع مستواها المعيشي، وإنّما ازداد الطين بلة في ظل ما لحقها جراء مفرزات الكوارث الطبيعية الوخيمة التي تعدّدت مظاهرها وأثّرت تأثيرا بالغا على حياة ساكنة المغرب الأوسط الزياني وزادت من مآسيها، وتعدّى ضررها المادي على حياتها الاقتصادية والاجتماعية إلى التأثير على أفكارها وذهنياتها. ذلك أنّ تردّد الكوارث الطبيعية على مجالها بكل أنواعها قحوطا كانت أو سيولا وما تُفضي إليه من مجاعات وغلاء الأسعار وأزمة الجوع والخصاص في ظل غياب الجهات المختصة بالتكفل بها وضعف الوسائل التقليدية المستخدمة في المجال الفلاحي ومحدوديتها، أسهمت في بروز معالم سلوكية ونمط اعتقادي في مخيال الانسان كنتيجة من نتائج ايقاع تلك الأزمة في مسار حياته، حين انعطف في منحى غير طبيعي تتوارى على ضوئه فاعلية حاسة العقل وتضمحل، وتكشف عن قيم منحرفة تبرز في سلوكه وطبيعة معتقده، وانساق وراء كل صيحة

[1]– السحر: لون من ألوان التمويه والاحتيال على البشر ومن الممارسات الباطلة التي لها تأثير على النفس؛ حيث يستعين صاحبه بالجن والشياطين على بلوغ مراده من الإذاية والشر. وهو ضروب متعددة كالمنجم الذي يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها ويدعي معرفة الغيب، والكاهن الذي يزعم معرفة الأسرار وإدراك مستقبل الزمان، والعراف الذي يزعم أنّه يعرف من الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها، ابن خلدون، العبر، ج1، ص655.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

اعتقد أنّ صوتها ينادي بنجدته ولو كان صوت الخرافة والأسطورة[1]. ويذهب أهل التصنيف المصدري إلى أنّ صنوف الأزمة التي مصدرها طبيعي كانت ظرفية شبه مستديمة ببلاد المغرب في الحقبة مدار الدرس وهو ما نلمسه من تردد أخبارها في متونها، إذ يُنير دربنا الوزان الفاسي بنص يكشف بأنّ الوباء في بلاد البربر كان يظهر "على رأس كل عشر سنوت، أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة"، وأنّ الناس ما كانوا يتعافون من أثر كارثة حتى تحلّ بهم غيرها[2]. وهو ما يوحي بتكاثف جهود تأثير الأزمة البشرية والطبيعية على حياة إنسان المغرب الأوسط.

في مجال القحوط وما ينجرّ عنها من مجاعات وأوبئة، أشار ابن خلدون إلى تعرض المغرب الأوسط إلى اضطرابات مناخية متعددة كان أبرزها القحط الذي حلّ بتلمسان سنة 688هـ/ 1289م[3]. بالإضافة إلى المجاعة العظيمة التي اجتاحت المغرب الأوسط سنة 776هـ/1374م نتيجة أحد الأعاصير الهائجة فأهلكت زرع صائفة تلمسان وحيوانها حتى "أكل الناس بعضهم بعضا"[4]؛ إذ بين أظهر الوضع العصيب غلت أسعار المواد الغذائية، ولم يستطع ميسوري الحال تحمّل نفقاتها الباهظة فضلا عن الفئات

[1]– الأسطورة: حكاية تقليدية مقدسة عند أهلها من انتاج الخيال البشري، تنتقل من جيل إلى جيل شفهيا، فتمثل ذاكرة جماعية حافظة لموروث مجتمع ما، شاكر سليم، قاموس الانثربولوجيا انجليزي عربي، جامعة الكويت، الكويت، 1981، ص659، السواح فراس، مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة "سوريا أرض الرافدين"، دار علاء الدين، دمشق، 1996، ص20، مرسيا إلياد، الأساطير والأحلام والأسرار، تر حبيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004، ص21.

[2]– الوزان الفاسي، المصدر السابق، ج1، ص83.

[3]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص156، العبدري، الرحلة المغربية، تقديم، سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2007م، ص27.

[4]– ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص575.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

الضعيفة، حتى بلغت تكلفة اليوم الواحد أربعة دنانير ذهبيا، كما انعدم الأمن في الطرقات. وهو ما عبّر عنه ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م) بقوله: "وكان أمر الطريق في الخوف والجوع مقتضاه أن كل من يقع قدومه يتعجب من وصولنا سالمين"[1]. فبالنظر إلى المدة الزمنية الواسعة التي تستغرقها الأزمة من الطبيعي أن لا تمرّ بسلام على أمن الرعية الغذائي والاجتماعي، بل ستكابد تحت سقفها –سيما فئة المستضعفين– محنا عصيبة ومشاقا جسيمة. كما كابد سكان تلمسان محننا هائلة على إثر الوباء الذي حلّ بها سنة 829هـ/1425م، أين فرّ الناس تاركين المدينة رغبة في الحياة وطلبا للنجاة[2]، ناهيك عن المنعطفات المناخية الحرجة التي تركت بصماتها العميقة في حياة المجتمع المغربي، إذ يشير الوزان الفاسي إلى أنّ سكان البربر عايشوا محنا شديدا اثر العواصف التي اجتاحت بلادهم، فالثلج كان ينزل في مناطق كثيرة، والرياح البالغة الضرر كانت تهب على بلادهم فتفسد "جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج"[3].

إنّ هذه القحوط والمنعطفات المناخية الشديدة غالبا ما تكون مضاعفاتها وخيمة على البنية الاقتصادية والديموغرافية، فهي تعصف بذوي الدخل المتواضع؛ ذلك أنّهم لا يستطيعون مجاراة تقلبات السوق وارتفاع الأسعار التي تصحبها، خصوصا إذا استمرّ القحط وأدى إلى انتشار الأمراض والمجاعات، فتتّجه بذلك شرائح واسعة من العوام نحو

[1]– ابن قنفذ القسنطيني، أنسر الفقير وعز الحقير، صححه، محمد الفاسي وأدلف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965، ص105.

[2]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص170.

[3]– الوزان الفاسي، المصدر السابق، ج1، ص81.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

تطبيق وصفات مشبعة بثقافة الخرافة والفكر الأسطوري[1]. وهو ما سنجلّيه بشكل أوضح في المحطات البحثية الموالية.

3. تجليات الخرافة في سلوك مواجهة الأزمة:

كمرتكز بحثي ننطلق على أساسه، نشير إلى أنّ الاستنجاد بالمعتقد الغيبي والفكر الخرافي[2] والقوى السحرية والخارقة، كثيرا ما كان نتاجا لخلفية اجتماعية واقتصادية أو لمناخ سياسي ترك أثرا عميقا في نفسية الأفراد ومخيالهم الجمعي، كما أنّه تجسيد لمواقف اضطرارية لتجاوز الظرفيات الاستثنائية والفترات العصيبة والفواجع الفاقرة، أو تعبير عن سلوك البحث في بدائل الخروج من الأزمة وتلافي مخلفاتها أو على الأقل التعايش مع واقعها حفاظا على النفس وضمانا للأمن والاستقرار الاجتماعي. وبذلك يكون قهر الأزمة وجهل العامة من مسببات تعطيل الضمير العلمي حتى لا تناقش حقيقة المعتقد الخرافي ولا تتساءل عن مدلول الأفكار التي تعتقدها والممارسات التي تستنجد بها بشأن مدى مصداقيتها في الحقل العلمي ومشروعيتها في النص الشرعي ومطابقتها لأبجديات التصور العقلي. وفي المقابل، استغل الدجالون تلك الحاجة وسذاجة بعض العوام وجهلهم وادعوا أنّهم وسطاء بينهم وبين خالقهم وأن مفاتيح الغيب بأيديهم لتخطي الأزمة.

---

[1]– البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية في سلوك وذهنيات الانسان في المغرب والأندلس (ق 6–8هـ/12–14م)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص22.

[2]– الخرافة: تعبير عن حوادث حقيقية ماثلة في سلوك وممارسات وعادات وتقاليد وأفكار مجتمعات نابعة من واقع ديني واجتماعي وظرفية تاريخية معينة. انظر: بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، ص415، أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 2001، ص850، فضيلة عبد الرحيم، فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2009، ص21.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

مع أنّه من الضروري أن نعضد طرحنا هذا بالتأكيد على أنّ دراسة ألوان المحن التي عصفت بإنسان المغرب الأوسط الزياني والأوضاع المزرية التي تخبّط تحت سقفها وأسهمت في نمو فكر خرافي في ذهنيته لانقاد نفسه وتطبيب جروح واقعه، لا يعني أنّه لم يعرف البتة فترات تحسّنت خلالها أحواله، كما لا يعني أنّ تفريط الجهات المختصة بالتكفل بشؤونه كان السمة الغالبة، وإنّما كان الجهاز الحكومي حريصا على تحسين ظروف الرعية، لكن دوره يغيب في الغالب نتيجة ظروف قاهرة كانشغاله بأمور الحرب والمدافعة على الممتلكات أو عجزا منه في ظل ذلك.

1.3 أزمة الجوع والبحث عن المخرج:

كانت أزمة الجوع من بين أشدّ البلايا وقعا على ساكنة المغرب الأوسط الزياني، حيث أفرزت واقعا عصيبا ترك أثرا بليغا في حياتها، وصعّب عليها عملية التعايش مع مفرزاتها، وأجبرها على البحث عن سبل الخلاص وقوّى في نفسها الرغبة في الاحتراز والدافعية للاستنجاد بكل ما يتراءى لها أنّ فيه النجاة ولو كان وهمًا، فكان المشعوذون والمنجمون من بين القوى التي اسندت ظهرها إليها. ويُذكر في هذا الصدد: أنّ قرى المغرب ومدنها ما كادت تخلو من مشعوذ أو كاهن أو ساحر يقتات على كاهل جهل العامة ويستثمر في أزماتها بادعائه أنّه قادر على بسط السيطرة على الكارثة الطبيعية مهما كان نوعها؛ وذلك وفق طقوس يؤقلمها وطبيعة الأزمة زعما أنّها أنجع لصدّ مفعولها، ووصفات خرافية يتزّ بها رواده ومن استنجد به[1].

[1]– ابن خلدون، العبر، ج6، ص681، انظر كذلك بن النية رضا: "صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الاسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر(80–362هـ/699–973م)"، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1427هـ/2006م، ص158.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

وعلى الرغم من جهود السلطة لتدارك الوضع المتأزم ورفع الغبن عن العامة أو جهود النخب العلمية وفي طلعتها شيوخ المتصوفة للنهوض بواقعها، لم يكن ذلك كافيا لقطع دابر معاناتها أمام تتالي مظاهر الأزمة. فقد كان سلطان الولي الصالح من المنافذ التي سَلَكتها تروم النجاة، وهو ما نجد صداه ماثلا في متن النص المنقبي الكاشف للجهد التضامني الذي بذله الولي أيام المحن في مساعدة العامة. فهذا الوالي أبو زيد عبد الرحمان بن علي الصنهاجي كان مقصد الناس بتلمسان لطلب قوت عيالهم في سنة المجاعة العظيمة وكان يعطيهم الخبز رغم حاجة أهله إليه. وكان والد ابن مرزوق الحفيد يبسط يده لمساعدة الناس أيام الثلج بفتح مطامير القمح والتصدق منها[1]. وهناك من الأولياء من كان يطوف على الناس بإناء من الماء أيام أزمة العطش فيشرب الجميع منه دون أن ينفذ الماء الذي به، ومنهم من كان يدفع آفة الجراد شأن ما رواه التادلي عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن محيو الهواري[2].

ولئن كان هذا الاستنجاد بالولي يندرج ضمن المظاهر التكافلية التي اصطبغ به المجتمع المغربي في العصر الوسيط والسلوكات الحميدة التي كانت هي المشهد البارز أيام المحن التي تطال حياة الساكنة، فإنّ الأمر لم يقتصر خلال تلك الأزمات على استنجاد العامة بالأولياء الأحياء وإنّما تجاوزه حتى لِطلب النجدة من الأموات، إذ من السلوكات التي ترسّخت في مخيال العامة كسبيل للنجاة من وبال الأزمة الغذائية هو الاستنجاد بضريح الولي الميت؛ اعتقادا منهم أنّها تغنيهم من الجوع وتؤمنهم من الخوف، ومن ذلك أنّ قبر كل من أبي مدين شعيب الأنصاري (ت594هـ/1198م) وأبي علاء بالعباد

[1]– ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص191–199.

[2]– ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح، أمحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، 1997، ص180–181.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

وغيرها من قبور أولياء الله الصالحين بتلمسان وملیانة ومعسكر كانت ملاذ العديد من فقراء المغرب الأوسط أوقات المحن، يطلبون من أهلها المعونة للتخفيف من آثارها على حياتهم ويستغيثون بأصحابها للنجاة من وبالها ويرجون إجابتهم بمد يد العون[1]. وكانوا يقومون بطقوس خرافية كإشعال البخور وإيقاد القناديل والشموع عندها ويضعون النذور أمامها، ويعلقون الخرق والشرائع عند القبر أو بالأشجار التي حوله[2]. وهذا الصنيع لا محالة، ينطق من جهة بمدى ايمان العامة بصلاح الولي وقدراته الخارقة على ترويض الصعاب، ويُوحي من جهة ثانية بحبل الثقة الوثيق الرابط بينها وبين الولي الصالح حتى بعد مماته، ويكشف من زاوية ثالثة مدى تمسّكها بسلطان القوى الغيبية في ظل عجزها عن ايجاد سند مادي واقعي بعدما قهرها الزمن وأعيتها أثقال محنه الشديدة.كما أنّ من بين السلوكات الرامية إلى تأمين الغذاء والتي لا تنضبط لمنطق علمي ولا تجربة واقعية، أنّه ساد في فكر بعض عوام بلاد المغرب بأنّ من أوجه طرح الآفة عن الزرع وعلاجه، غربلة الزرع في غربال من جلد الذئب فيه ثلاثون ثقبا[3]. وهو سلوك غريب لا يقبله العقل لغياب التكامل العلمي بين المسببات والاعتقاد.

من المشاهد الكاشفة أيضا لسلوكات الوقاية الغائرة في مستنقع الخرافة والتفكير الأسطوري، ما تضمّنته كتب النازلة من مسائل راسمة لعمق المحن التي عاركتها العامة في مغرب العصر الوسيط بسبب آفة الجراد التي ترددت بشكل دوري على محاصيلها

[1]– ابن قنفذ، المصدر السابق، ص105.

[2]– عبد الشكور نبيلة، اسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الاسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع للهجرة (12–15م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، الجزائر، 1429هـ/2008م، ص297.

[3]– البياض، المرجع السابق، ص147.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

الزراعية وأعلافها وهدّدت أمنها الغذائي، ورفعت من سقف هاجس الخوف حيال سبل مجابهتها. ولئن كانت الفتوى الفقهية كثيرا ما بدّدت تلك المخاوف وقدّمت وصفات شرعية كفيلة بتضميد جرح معاناتها إلى جانب جهود السلطة في مكافحته، فإنّ ذلك لم يمنع من طرق باب الخرافة بحثا عن المخرج والمنقذ؛ حيث استعانوا بسلطة التنجيم وقواه الغيبية المزعومة، على غرار ما أشار إليه الونشريسي في معياره من مسألة الساحر اليهودي الذي اشتهر أمره بين الناس وحظي بمكانة متميزة بقلعة هوارة من نظر تلمسان سنة 849هـ/1445م، أو ما ساقه من نوازل تعالج مسائل ادعاء علم الغيب والتصرف في الكون من طرف السحرة والكهان وطبيعة الأحكام الشرعية حيال صنائعهم الخرافية؛ فقد أورد أنّ منهم من يدعي معرفة أيام نزول المطر، ومن يقول اشتروا مني الغيث[1].

ولعلّ استمرار الفكر الخرافي إلى جانب العمل التجريبي في مجال الفلاحة وسُبل المعاش راجع إلى طبيعة الانفصام بين العلم والتقنية الفلاحية المحدودة الاستخدام، فكما نعلم أنّ التقنيات المتبعة في مجال الفلاحة على الرغم مما شهدته من حركية تطورية في ميادين عريضة من تخصصاتها ظلت قاصرة الاستخدام على مجال ضيق ومحدودة التطبيق على فئة من الفلاحين دون غيرهم. وهو ما ساهم بشكل تدريجي في انزلاق التصور الوقائي في مجال التغذية نحو ممارسة السحر والشعوذة والتعلق بالتمائم والاتكال على الغيب استدرارا للبركة واتقاء المسغبة[2]. وحسبنا أن نستدل على ذلك بما جاد به علينا

[1]– الونشريسي أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إخراج، محمد حجي وآخرون، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1401هـ/ 1981م، ص394–399.

[2]– البياض، المرجع السابق، ص148.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

الحسن الوزان: بأنّه كان في المغرب الأوسط رجل مشعوذ وساحر من الكبار يحظى بتعظيم من الأعراب وحتى من السلطان[1].

كما يحسن بنا التنويه إلى أحد العوامل التي أجّجت من نار الأزمة الغذائية التي مسّت ساكنة المغرب الأوسط الزياني في فترات استثنائية ويتعلّق الأمر بظاهرة الاحتكار. ذلك أنّه وأمام عمق المحن المتراكمة على كاهل المجتمع، راهن عناصره على سلوك التخزين والادخار، ومنحوه أولوية أولوياتهم، حتى أضحى عادة راسخة في نظام الحياة بالمدن والبوادي في مسعاها الاحترازي–الوقائي من آثار الأزمة الغذائية الفجائية، حيث اتخذت مخازن تدخر فيها الزرع لوقت الحاجة سواء في المطامير الفردية أو في مخازن جماعية، حتى قيل إنّ التخزين عُدَّ ظاهرة بنيوية تعكس خصوصيات البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة[2]. وتطالعنا المصادر عن ترسّخ سلوك الادخار وانتشاره بين ساكنة المغرب الأوسط حتى قيل أنّه من سمات الدولة الزيانية. مما يوحي بأنّ هواجس الخوف ألقت بكلاكلها ثقيلا على شرائح اجتماعية واسعة، حيث حفر الخاصة والعامة مطامير في بيوتهم وغرفهم تحسبا لنوائب الدهر، كما حفر سكان الريف التلمساني ومنهم الفقراء مطامير لتخزين القوت استعدادا للظروف القاسية[3]. ولّما كانت الأزمة تستنزف في الغالب مدخّراتهم عن آخرها، كانت أسعار المواد الأساسية تعرف لهيبا، وأسواقها تشتعل مضاربة، وموادها تشهد احتكارا كبيرا، وقد أحسن القول في هذا السياق ابن

[1]– الوزان الفاسي، المصدر السابق، ج2، ص29.

[2]– أعدي علي، التخزين بالمغرب الوسيط والحديث: إسهام في دراسة تاريخ السلوكيات، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد الثالث، العدد الأول، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، 2019، ص188–189.

[3]– الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص326، ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص209.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

خلدون حين أكّد بأنّ "الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فغلا الزرع، وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقودا فشمل الناس الجوع"[1].

حصيلة القول، أنّ هواجس الخوف فرضت ثقلها على كاهل المجتمع، فراح عناصره يتشبّثون بأي خيط ولو كان رفيعا حفظا للحياة وتأمينا للبقاء، وأمام الحاجة وتحت جناح الضرورة لاذوا بسلوكات مخالفة للرؤية الشرعية حين عمد بعض التجار إلى احتكار البضائع، وتخزينها في مستودعات موزعة في أماكن محصنة، وأخذوا يتحكمون من خلالها في رقاب الناس ويستخدمون الغذاء كسلاح لابتزازهم ويرهنون حياتهم بتحقيق الأرباح. وهذا السلوك وإن كان لا يندرج تحت سقف السلوك الخرافي، إلاّ أنّ تأثيره في حياة العامة كانت عميقا، ذلك أنّه شكّل أحد مظاهر الأزمة التي لعبت دورها في إضعاف مناعتها الفكرية فلا تتأقلم مع الظرف ولا تصمد في وجهه وإنما تستسلم للمعتقد الخرافي كلون من ألوان المدافعة والمحابهة.

2.3 الفكر الخرافي في مواجهة التقلبات المناخية المؤثّرة:

نتيجة المنعطفات المناخية الحرجة التي ميّزت تاريخ المغرب الأوسط الزياني وقساوة الكوارث وفواجعها كعدم انتظام التساقط والجفاف، وما تفضي إليه من تفشي المجاعات والأوبئة بشكل دوري، وعجز الفرد عن سدّ متطلبات حياته الأساسية وفي طليعتها حفظ وجوده، وفي ظل سذاجة بعض العوام وضعف ادراكهم للعلاقات السببية المتحكمة في المتغيرات المناخية ونزول الجائحة ويقينهم بأنّ الاضطراب المناخي نذير بسلسلة من الصعوبات المعيشية والصحية والنفسية، لاذوا بأي وسيلة اتيحت بين يديهم ولو كان حبلها ضعيف كحلّ من حلول تجاوزها. إذ هناك من اعتقد أنّ نزول الأمطار

[1]– ابن خلدون، العبر، ج1، ص376.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

مرهون بقوى غيبية عليا ينبغي استرضاءها بمختلف القربات حتى تجود بالغيث وتذرّ به، فخصصوا لذلك طقوسا خرافية كتقديم الذبائح وإخراج الأطعمة، وتناول الأطعمة الدسمة في أوقات معينة استرضاءً لها. ومن ذلك: طقس "بوغنجة" الذي تمتد جذوره حتى العهد القرطاجي وعرف الاستمرارية إلى غاية فترة العصر الوسيط، أو الاحتفال بأعياد فلاحية لتأمين مواردهم المعيشية. كما يُذكر أنّ الناس في تلمسان كانوا أيام الجفاف يرشّون السطوح والنوافذ والصبايا الصغيرات المارات بالماء وهم يغنون استجلابا للمطر، وفي وهران كانوا يقومون بوعدة أو مأدبة المطر؛ حيث يتراشق الناس بالوحل[1]. وهي سلوكات لا محالة تعكس زيغ الثقافة الغيبية لدى شريحة العوام عن سياقها الديني السليم إلى مهالك الشعوذة والخرافة. وليس ببعيد عن هذا، لم تنسلخ بعض العناصر القبلية من العرب المستوطنة للمجال المغربي عن عادات الجاهلية المتوارثة؛ فكانت تزعم أنّ استجلاب المطر في سنين العجاف يمكن بربط بعض فروع الأشجار والسلع في أذناب البقر وإضرام النار فيها في قمة جبل مرتفع[2]. وهو فكر وثني ضارب في أعماق الخرافة إلى حدّ النخاع ويفصح عن دخول العقل في سبات عميق.

كما أنّه وأمام عجزهم عن ادراك مسائل التحولات الطبيعية الطارئة والاضطرابات المناخية المحتملة، ساد في ذهنيات شريحة من العوام تعليل غيبي ينطلق في الغالب من معتقدات ميتة قتلها المعتقد الاسلامي الحي، فراحوا يعتقدون في مسبباتها أمورا خرافية ويعللونها بمعتقدات باطلة لا تموت بصلة للشرع ولا للعقل، فالطاعون أرجعوا أسبابه إلى أمور روحانية "كاستيلاء طبيعة زحل الأولى السوداوية التي تظهر على

[1]– روبي باصي، أبحاث في دين الأمازيغ، تح، حمو بوشخار، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، ص48.

[2]– البياض، المرجع السابق، ص142.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

سطح البدن"[1]، وعُلِّلت بعض الأمراض بأمور غيبية من قبيل ارتباطها بالجان. بالإضافة إلى تمسّك بعضهم ببعض السلوكات الخرافية في مساعي استطلاع أخبار الأحوال الجوية حين ارتموا بين أحضان الدجالين والعرافين من خلال على سبيل المثال، النظر في كتف الشاة وتأويل نتوءات العظم الدالة بزعمهم على الاضطراب الجوي المحتمل[2]. وأمام عجز العامة عن ايجاد بديل علمي وعمل تجريبي، وأمام ثقل الأزمة ودهاء وتحايل الدجالين في الاستثمار خلالها، ظلّ المتضررون يتشوفون إلى رأي المنجم والكاهن[3]. فكأنهم استسلموا لقوى غيبية وهمية مؤثرة في تدبير شؤون المناخ أو بالأحرى الكون.

3.3 الأزمة الصحية:

ضمن مجال الاستنجاد بالخرافة بين أظهر الأزمة، رصدت لنا النصوص المصدرية بعض المشاهد الكاشفة لذلك الواقع في مسعى طلب العلاج والاستشفاء، حيث ارتبطت ذهنيات بعض العوام بالمغرب الأوسط الزياني بطرق علاجية خرافية لا تستند إلى تبرير علمي ولا تحتكم لسلطان العقل فضلا عن الامتثال للنص الشرعي. وكان من المعتقدات التي تسلّلت إلى فكرها: الاعتقاد بأنّ هناك أمراضا وأوبئة تصيب الانسان بسبب أمور غيبية كإذاية الجن والشياطين. وتأتي الرواية المنقبية لترسم لنا جانبا من ذلك الواقع، وممّا

[1]– مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588–927هـ/ 1192– 1520م)، رسالة ماجستير، اشراف محمد الأمين بلغيث، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2009، ص121، الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة عهد الموحدين، منشورات الزمن، المغرب، 2002، ص50، فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية ثقافية، ج2، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص251.

[2]– مزدور، المرجع السابق، ص121.

[3]– البياض، المرجع السابق، ص150.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

أفادتنا به أنّه لّما مرض قوم "أبي ولجوط" المعروف "بأبي تابرنوست" بالوباء، عمد كسبيل من سبل العلاج إلى طرق باب الجن؛ حيث استدعى جماعة من الجن لشيخه أبي محمد عبد الخالق بن ياسين، وطلب من جماعة الجن أن يظهروا له واحدا منهم حتى يحاوره، وأخبر شيخه بأنّ قوم واحد من جماعة الجن الذين بين يديه هم من أضرّ بالبلد وبسببهم كان ما أصابهم من مرض[1]. وهي حوادث تصور التسليم بأمور خارقة لا تنفصل في بعض مسلماتها عن التأثر بالتراث الغيبي الخيالي المتوارث عبر أجيال المجتمع المغربي، والمعبِّر عن حالة الجهل بالأسباب الطبيعية والعلمية للمرض، والكاشفة لمستويات الاستنجاد بالغيبي والطقس الخرافي في تعليل وتفسير الظواهر وطلب العلاج والتطبيب، وذلك موازاةً مع فشل أصحاب التطبيب المادي في تأمين وصفات تجريبية كفيلة بسدّ المتطلبات الاستشفائية.

لقد استسلم العقل العامي أمام مؤثرات الأزمة الصحية وسلبياتها، وأصبح أرضية خصبة سمحت بنمو اعتقادات خرافية ومظاهر سلوكية لا تأبه لمنطق العقل ولا تستجيب لأساسياته، إذ بالإضافة إلى الصنوف المتعددة التي أوردتها مصنفات النازلة بشأن ألوان علاجية خرافية اعتمدها بعض العوام ولاذوا بها حلاّ ووصفة علاجية، كطرق باب السحرة والمشعوذين بتعليق التمائم والعزائم والحروز للشفاء ودفع المرض وتحقيق الاطمئنان النفسي[2]، يُطلعنا الوزان الفاسي على مظهر غريب من مظاهر الاستشفاء: يتمثّل في التمسّح بالتراب الأرميني لمعالجة دمل الطاعون[3]. ويدعم ما ذهبنا إليه أيضا، ما

[1]– الصباغ، مخطوط بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، ورقة81، مزدور، المرجع السابق، ص122.

[2]– الونشريسي، ج11، ص29.

[3]– الوزان الفاسي، وصف افريقيا، ج1، ص85.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

أورده ابن خلدون بأنّ الساحر كان له حضورا ملحوظا في ذهنيات الكثير من العوام يلوذون به لتجاوز عجزهم في الاستشفاء من الأمراض والاحتماء من الأخطار ومناهضتها[1]. وهو ما ينطق بتفطّن هذا المؤرخ لطبيعة المؤثرات الفاعلة في ذهنية انسان المغرب المرتبطة بشكل أساس بحالة العجز عن المعاش الطبيعي للكسب من التجارة والفلح والصناعة التي سمحت بتسلط الدجل والاستسلام للخرافة.

لعلّه من الطبيعي أن يفتّش المريض عن أسباب الشفاء بما اتيح له من امكانات مادية ومعرفية تحت جناح ظروف الأزمة القاهرة، لكن ذلك لا يعتبر مسوغا يبرّر كافة سلوكاته ومعتقداته إذا لم تهتدِ ببصيرة الشريعة ومنهج العقل وسبيل التجربة العلمية. لذلك لا يمكن اغفال دور الولي في مجال التطبيب الروحي في اطار المنظور الشرعي وحدود الإمكان البشري وذلك سواء بالدعاء أو الرقية، لكن الاعتقاد بأنّ للولي القدرة الخارقة على شفاء كل ألوان المرض دون استثناء وحتى من العاهات المستديمة كإرجاع البصر ومعالجة فقدان السمع والنطق، نعتقد أنّه ضرب من الوهم بشأن قدرة الولي الاستشفائية. وحسبنا في هذا الصدد الاشارة إلى ما رواه صاحب البستان عن قدرة كل من أبي العلاء المديوني (ت735هـ/1334م) ومحمد بن الوجديجي (ت950هـ/1543م) وأحمد المغراوي (ت988هـ/1589م) على شفاء العاهات[2]. وبذلك، تظل الرواية المنقبية الغنية بالنصوص الكاشفة لسلطان الولاية الخارق في جانب الاستشفاء من العاهات المستديمة في حاجة ماسة إلى تدقيق النظر في مادتها من لدن أهل الاختصاص وأهل الدراية بهذه الاشكالية.

[1]– ابن خلدون، العبر، ج1، ص655.

[2]– ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع في المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، (د.ط)، 1336ه/1908م، ص280–282.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

3. 4 المرأة المغرب أوسطية والفكر الخرافي:

في اطار الجهد الاجتماعي الرامي إلى حفظ أمن الأسرة الاجتماعي وتمتين روابطها الأسرية وتأمينها من أي خطر يتهدّدها، كان من الوصفات الطبية التي استنجدت بها بعض نسوة المغرب الأوسط الزياني هي وصفات السحر كالتمائم والعزائم. فالمرأة وحتى تكفل رباطها الزوجي بعقدة التماسك وتقيه شر الانفلات والاضطراب إذا أحسّت بأنّ حبل المشاكل يكاد يطبق على عنق علاقتها بزوجها أو خافت من بعلها نشوزا أو ضررا بها، استعانت بالسحرة واطمأنت لوصفاتهم السحرية وآمنت بمفعولها، حتى بلغ الأمر ببعض النسوة أن لا يقطعن أمرا حتى يستشرن العرافين والكهنة فيما يقدمن عليه من تصرف حفظا لعلاقتهن الزوجية من الطلاق والاضطراب[1]. وحسبنا ما أشار إليه النص النوازلي على نسق رواية الونشريسي بشأن المرأة التي تلوذ بالكُتاب حتى تتقي شرّ زوجها[2]. كما أنّه وفي ظل تردد الأزمات على حياة المجتمع المغربي في العصر الزياني جراء الحروب المتكررة، تضاعفت هواجس خوف المرأة على أمنها الأسري وحياة أفرادها، فكانت تلوذ بالفكر الخرافي طلبا لحفظ النفس وتأمينها، ومن ذلك صنيعها حين يخرج أي فرد من أفراد العائلة مسافرا؛ بأن لا تكنس البيت حتى يعود، اعتقادا منها أنّ كنسه نذير شؤم بعدم عودته، كما كانوا يؤذّنون ثلاثا عند توديعه زعما منهم أنّ ذلك يردّه إليهم آمنا[3].

[1]– عبد الشكور نبيلة، المرجع السابق، ص321.

[2]– الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص171.

[3]– الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص489. للمزيد من التفصيل، انظر: عبد الشكور نبيلة، المرجع السابق، ص318.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

كما لعبت أزمة العنوسة دورها في تسلّل بعض الأفكار الخرافية إلى ذهن الفتاة الزيانية التي أرقها الخوف على مستقبلها الاجتماعي، حين راحت تبحث في عماية عن حلول ظرفية لبناء حياتها الاجتماعية مع شريك الحياة دون تمحيص في طبيعة السبيل الذي تسلكه ومراعاة رؤية الشرع حياله. إذ شكّلت أضرحة الأولياء وجهة آمنة رأت أن تلوذ بقدرات ساكنيها الخارقة، تستغيث ببركتهم عساها تظفر بشريك العمر وتتخلّص من شبح العنوسة، فكانت أضرحة الوليات الصالحات المدفونات بتلمسان كضريح "لالا ستي" و"لالا مغنية" قبلة للعديد من الفتيات يترددن عليها وكلّهن أمل في تغيير واقعهن الاجتماعي وملامسة حاجتهن، فيتمسّحن بها ويلطمن خدودهن عندها ويصرخن ويبكين حتى يفقدن وعيهن أحيانا. والحال ذاته مع النساء العاقرات طلبا للخصوبة والإنجاب[1]. ومن بين أغرب ألوان الخرافة التي ذاعت في أوساط بعض نسوة المغرب الأوسط، أنّ من سبل التخفيف من كآبة الأرملة التي فقدت زوجها، أن تجلب النسوة لها بشيء من تراب ضريح الولية "لالاسيتي" ويوضع في كوب ماء، ثم يُقدّم للمرأة الكئيبة فتشربه ليخف ألمها[2].

3. 5 الاستنجاد بالكرامة الخارقة لتجاوز مخلفات الأزمة:

بغض النظر عن ألوان الأزمات التي اجتاحت حياة ساكنة المغرب الأوسط وتركت آثارها العميقة في مخيالها ودون الخوض في طبيعة الكرامة الصوفية وحقيقتها[3]، كان من بين القوى الغيبية التي رأت شريحة عريضة من العامة الاستنجاد بها والتشبّث

[1]– عبد الشكور نبيلة، المرجع السابق، ص297.

[2]– المرجع نفسه، ص319.

[3]– بشأن الكرامة، انظر: ابن الزيات، المصدر السابق، ص45، القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الاسلامي، دار الطليعة للطباعة، بيروت، لبنان، 1994، ص106.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

بحبلها زمن الأزمة والمحن: هي خوارق الكرامة ومفعول سلطان الولاية؛ والتي كان الصوفي هو ملاذها باعتباره في نظرها يحوز من مؤهلاتها ويمتلك من مقوماتها ما يمكّنه من تخليصها من ذلك الواقع. فلو ألقينا نظرة فاحصة للنصوص الكرامية المتناثرة بين طيات المصنفات المنقبية والتراجمية لأولياء المتصوفة لوقفنا على عدّة مشاهد كاشفة لمستويات استعانة العامة بكرامة الولي الصوفي ودورها الخارق لتأمين الممتلكات أيام المحن والأزمات ببلاد المغرب في عصره الوسيط، إلى درجة أنّ الكرامة امتزجت على ضوء ذلك الدور الخارق بالفكر الأسطوري، حتى ارتقى الأمر إلى أنّ هناك من اعتبر الكرامات وجها جديدا انتحلته الأسطورة مصطلحين عليها: "الأسطورة الكرامية"[1]. وهو الطرح الذي يدفعنا إلى التساؤل بشدّة حول مدى دور الخطاب الكرامي في تفعيل الذهنية الخرافية في مجتمع المغرب الأوسط الزياني؟

خلال فترات الانفلات الأمني الذي عايشه انسان المغرب الأوسط في ظل انتشار السلوك العدواني كاللصوصية والحرابة سيما حين عجزت السلطة عن القيام بدورها التأميني بشكل طبيعي وفرض التعزيزات الأمنية بشكل كافٍ، بحث عن بديل ينافح به عن نفسه ويُؤمِّن ممتلكاته، وكانت قِبلة الكرامة وجهة ولّى شطرها وجهه، والتصوّر الخرافي ملاذا آمنا أسند إليه جانبه. لقد كان من تبعات الأزمة التي عاركها مجتمع المغرب الأوسط استفحال ظاهرة اللصوصية والغصب والنهب تحت طائل القتل والتهديد، وتكرّرت حوادثها حتى باتت وظيفة يمتهنها اللصوص وقطاع الطرق بصفة جماعية في شكل عصابات منتظمة تمارس العنف والغصب والإغارة باحترافية وتنشط بشكل أكبر حين تشتد الأزمات، حيث تمركزوا في نقاط عبر خطوط التجارة القوافلية وانتشروا عبر

[1]– لدرع آمال، الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633–962هـ/1236–1555م)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2006، ص71.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

مساراتها يقطعون السبيل. وبذلك أضحى نشاطهم هذا هاجسا يؤرق أصحاب مخازن الأقوات ومطاميرها وأهل الفلاحة ومُلاك الحيوانات، وأصحاب القوافل التجارية ومُسيريها، وأصحاب المحلات والدكاكين، فراحوا في ظل هذا الجو المفعم بالاضطراب يستنجدون بسلطة الولي ووازع الكرامة باصطحاب الولي في رحلاتهم التجارية أو الرجوع إليه لاسترداد مفقوداتهم واسترجاعها. وفي هذا الصدد تضع بين أيدينا المادة المصدرية صورا تكشف الوضع المضطرب الذي شهدته مسالك المغرب الأوسط، على غرار ما عايشه الجغرافي العبدري بنفسه خلال رحلته، وذلك أنّه عجز عن الخروج من تلمسان لصعوبة الطريق الرابط بينها وبين تازا بسبب كثرة قطاع الطرق والمحاربين ومحترفي اللصوصية وتمركزهم في نقاط متفرقة على مسار تلك المسالك، حتى بلغ الأمر كما يذكر: أنّه ما كان يسلم من شرّها كل من غامر بالرحلة[1]. ويعضد ابن خلدون هذا الطرح حين يكشف الحجاب عن جانب من وقع التأثيرات المناخية القصوى على حياة ساكنة المغرب الأوسط، من قبيل سلوكات التعدي والتلصص التي استهدفت مدخرات مدينة تلمسان من قمح ومؤن على اثر مجاعة 732هـ/1332م التي وصفها بالفاقرة[2].

كما يجدر التنويه إلى ما طرحته المادة الفقهية النازلة من مسائل اجتماعية يرتسم على ضوئها جانب من واقع المعاناة والبحث عن سبل الخلاص تحت جناح الفتوى الفقهية، فقد أورد الونشريسي في معياره نازلة تتعلق بقتال المغيرين وقطاع الطرق من عرب المغرب الأوسط سنة 796هـ/1394م، وكانت جماعتهم تقدر بعشرة آلاف "أو تزيد، ليس لهم إلا الغارات وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم، وانتهاب

[1]– العبدري محمد البلنسي: الرحلة المغربية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428ه /2007م، ص212.

[2]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص156.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

أموالهم بغير حق، ويأخذون حُرَم الاسلام أبكارا وثيبا قهرا وغلبة، هذا دأب سلفهم وخلفهم مع أن أحكام السلطان لا تنالهم بل ضَعُفَ عن مقاومتهم، فضلا عن ردعهم"[1]. كما أشار إلى أعمال السرقة التي تعرّضت لها بعض محلات تلمسان وبيوتها وغيرها من أعمال الخيانة وقطع الطريق بها من طرف لصوص مسلحين ودون أن يتورعوا عن القتل وسفك الدماء[2]. إلى جانب التأثير السلبي الناجم عن نشاط الأعراب القاطنين بضواحي مستغانم وملیانة وعددهم ما ينيف عن ألفي فارس الذين كانوا يمتهنون اللصوصية ويقترفون جرائم القتل والسبي[3].

أمّا عن دور الولي في عملية التأمين فعلى ضوء ما أشاعته المصنفات المنقبية– التراجمية عن كرامة الولي وقدرته الخارقة على تأمين الممتلكات وقهر الصعاب والتغلّب عليها، يتجلّى لنا بأنّ الولي أحمد بن حسن الغماري (ت874هـ /1469م) كان موضع ثقة ومصدر بركة مشهور عند أصحاب القوافل والتجار والمسافرين، يؤمنون بقواه الكرامية الخارقة في حفظهم من أذى اللصوص وقطاع الطرق[4]. وأنّ الصوفي "سعادة الرحمن" كان له دور كبير في تأمين الناس من أذى اللصوص وكان شديدا عليهم تزعهم قوته ويرهبون كراماته[5]. كما أحالنا النص المنقبي على صور كاشفة لخوارق الولي في منع

[1]– الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص153.

[2]– المصدر نفسه، ج2، ص402.

[3]– الوزان الفاسي، المصدر السابق، ج2، ص51.

[4]– ابن صعد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق، يحي بوعزيز، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، ط1، 2002، ص79.

[5]– الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م، ص149.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

وصول أيدي اللصوص إلى حقولهم وبساتينهم، ومن مظاهرها: أنّه إذا تطاول أحد عليها لم يجد مخرجا منها إلا إذا ترك ما سرق، أو خرج له ثعبان يمنعه من السرقة، شأن ما تفصح عنه مناقب الولي الحسن بن مخلوف الشهير بأبركان (ت857هـ/1453م) أو الولي محمد الهواري (ت843هـ /1439م). كما اشتهر صنف آخر من الأولياء بكرامة استرجاع المسروقات وردّها إلى أهلها إذا ما استنجدوا بهم، شأن أحمد الشريف المليتي (ت985هـ/1586م)[1].

ومن ثمّ، ترسّخ في مخيال العامة وتناسل في اعتقادها، أنّ القافلة التي يصحبها الولي ويرافقها صاحب الكرامة لا يلحقها الأذى ولا يمسّها سوء من قطاع الطرق والمحاربين، وأنّ حضور الولي رفقة أصحاب القوافل التجارية كفيل بتأمينها وصرف الأذى عن طريقها، وأنّ قوته رادعة لكل من تسول له نفسه مهاجمة القافلة، وتبعث الرعب في نفس كل لص عرف أنّ بصحبة القافلة وليّا صوفيا. فكان هذا الاعتقاد بدوره كفيلا بتغذية معتقد الإيمان بالغيبيات عند العامة حتى الذين ليسوا تجارا ولا أصحاب القوافل، وإنّما سمعوا خبر ذلك، فنما في مخيالهم معتقد مسلّم به وذهنية جازمة بقدرة الكرامة الخارقة على تخليصها من الأذى وتأمينها منه، وأنّها سلاح فعال في وجه من يروم لهم الأذى، وأنّ لهم القدرة على تطهير المجتمع من قوى الشر ورؤوس الفساد.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول أنّ الكرامة حتى وإن كانت هناك نصوص مصدرية ترفع من مصداقيتها وتُقوّي من مفعولها وتثبت حضورها، فإنّ ذلك لا يعني خلو المادة النصية المنقبية التي سجّلت جانبا من أوجهها في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط بشكل عام والزياني بصورة خاصة، من المبالغة والافراط في اظهار قدرات الولي الخارقة للعادة في تجاوز الأزمات واحتوائها ونفع الناس وقضاء حوائجهم. فلئن

[1]– ابن مريم، المصدر السابق، ص228، ابن صعد الأنصاري، المصدر السابق، ص269.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

كان الولي قد يُخصّ ببعض الكرامات في حياته كاستجابة دعائه وبركته وقوة فراسته، فإنّ ذلك لا يعني استمرارية كراماته بعد وفاته ذلك أنّه بشر إذا مات انقطعت صلته بالدنيا وتوقف نفعه لنفسه إلا من ولد صالح يدعو له أو علم نافع تركه يُنتفع به أو صدقة جارية تعود عليه بالأجر، فما بالنا إذا تعلّق الأمر بنفعه لغيره. وممّا يُقوّي طرحنا هذا، أنّ الولي ما كان يستطيع أن يصرف عن نفسه المرض أو يسلم من ألمه أو ينجو من الموت بسببه، فمرض الطاعون لم نقف على نص يشير إلى أنّ كرامة الولي أفلحت في علاجه في الوقت الذي تطلعنا نصوص منقبية على متصوفة كان الطاعون سببا في وفاتهم، ومنهم: والد ابن قنفذ القسنطيني الذي كانت وفاته بمرض الطاعون سنة 749هـ/1348م[1]. فيكون التبرك بقبر الولي وتقديس ضريحه وتقبيله سلوكا يندرج ضمن باب البدع والشركيات التي لا تختلف عن الاعتقاد بالخرافة والأسطورة، ودليل على ضعف ذهنية العامة وجهلها بحقيقة الممكن في قدرة الولي الصالح. وحتى صفة القداسة التي تعيش في مخيال بعض العوام حيال الولي وأصحاب الكرامة بعد مماتهم إذا تجاوزت حدود الاعتقاد المنسجم مع رؤية الشرع وتعدّت نطاق سلطان العقل، فإنّها تشترك مع الأسطورة في بعض أوجهها. بل وحتى بعض أوجه الكرامة التي تضمّنها النص المنقبي من قبيل: "طي الزمان والمكان"، و"الطيران في الهواء" و"تكليم الموتى" و"ترويض الجن" و"تفريج الكروب"[2]، لا تخلو من الاعتقاد الخرافي والبعد الخيالي في المخيال العامي، فضلا عن كون ذلك الاعتقاد المطلق ينطق بصور الانغلاق والتحجر الفكري وتعطيل حاسة العقل النقدي الفاحص للخبر الممحص للزائف من المعقول. ومن ذلك: تخصيص أبي العباس بن منصور بحجر أزرق قرب بيته يتردد عليه المرضى يطلبون الشفاء، وعند ابن

[1] – ابن قنفذ، المصد السابق، ص43.

[2] – ابن مريم، المصدر السابق، ص229–233، الصباغ، المصدر السابق، ورقة 81.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

مريم التلمساني أنّ من مكاشفات ابراهيم ابن محمود المصمودي التلمساني أنّ الجن كان يجود عليه القرآن، وأنّ أحمد بن منصور صاحب الصلاة التلمساني كان ملما بأخبار الغيب[1]. وأنّ امرأة توفي عنها زوجها فجاءت إلى الشيخ أبي يعقوب الشفاف وهي تحمل ابنها الأصغر في يدها، "فمسح الشيخ على رأس اليتيم وقال له يرجع أخوك إن شاء الله"[2]. وهو سلوك يكشف الحضور القوي لسلطة الشيخ الكرامية وخوارقه في مخيال العامة، فبدل تضرع هذه المرأة إلى الله بالدعاء بنفسها أو بطلبه من أهل الصلاح واللجوء إلى صاحب الأمر عساها تظفر بما يعينها على تصريف أمورها الاجتماعية أو يمدّ يد العون لفدية ابنها وتخليصه من ربقة الأسر، رأت –كما بات سائدا في مخيال شريحة عريضة من العوام– بأنّ الخلاص يكمن في قدرة الكرامة، وأنّ الملاذ هم الشيوخ والأولياء.

3. 6 استطلاع المستقبل سبيل للاحتراز من مضاعفات الأزمة:

ضمن الجهد الاحترازي الذي واظب عليه انسان المغرب الأوسط تحت جناح الأزمة أو دونه، رأى أن استطلاع المستقبل واستخبار الغيب مقوم من مقومات النجاة من ضرر المحن واتقاء مآسيها، ومادام مطلبه لم يكن متاحا إلا عند من يدّعيه من المشعوذين والمتنبئين، لم يدّخر البعض جهدا في الاستعانة بقدراتهم والاستئناس بتعبيراتهم. ولعلّ من المشاهد التاريخية التي يمكن أن تصدق على هذا، ما احتفظت لنا به الرواية الخلدونية من خبر الكاهن الزناتي "موسى بن صالح" الذي اشتهر في قبيلة غمرت بكهانته والتنبؤ بالغيب. حيث ظلّت عادة راسخة في ذهنيات عناصرها يتوارثونها إلى زمانه كما

[1]– ابن مريم، المصدر السابق، ص42، 64.

[2]– البادیسي عبد الحق، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تح سعد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1993، ص59.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

جاء على لسانه قائلا: "لقد نقلوا من بعض كلماته ما معناه باللسان العربي أنّ تلمسان مآلها الخراب، وتصير دورها فُدُنًا حتى يثير حرّاث أسود بثور أسود أعور. وذكر الثقات أنّهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلماته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستين وسبعمائة"[1]. وهو نص يكشف اعتقاد أهل غمرت في نبوءة صاحبهم، وأنّ ما عاينوه من مصير مدينة تلمسان حين حلّ بها الخراب على يد الجيش المريني سنة 760ه /1359م هو مصداق تلك النبوءة. كما يضعنا الوزان الفاسي أمام صورة كاشفة لمكانة الكاهن في حياة بعض العوام وحتى الخاصة وذيوع صيته بين أظهرهم، ومن ذلك ما عاينه بنفسه في منطقة "البطحاء" من أرض المغرب الأوسط عن مكانة رجل أدعى الولاية، يحظى بمكانة خاصة عند الأعراب، وله عدد كبير من الأتباع[2].

والحق، أنّ الأمر ما كان يقتصر على سلوك العامة سبيل التنجيم استطلاعا على أوقات الأزمات القادمة أو قراءة المستقبل، وإنّما حتى الخاصة ركبت سفينته، إذ اعتقد بعض السلاطين بالفأل والتطير وصدّقوا التنجيم، فالسلطان السعيد الموحدي تطيّر في خروجه إلى تلمسان لمحاربة بني عبد الواد سنة 646ه/1248م حين انكسر لواؤه الذي يُحمل أمامه، فرجع و لم يكمل مسيره حتى إلى يوم الغد؛ وذلك تشاؤما وخوفا من أن

[1]– ابن خلدون، العبر، ج7، ص69، أبو حمو موسى الزياني، كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، المطبعة التونسية، تونس، 1279هـ/1861م، ص14، مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، ج2، تح، بوزياني الدراجي، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص34.

[2]– الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص28، بكاي عبد المالك، الحياة الريفية بالمغرب الأوسط 7–10هـ/13–16م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة باتنة، الجزائر، 2014، ص157.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

تنكسر شوكته أمام جيش بني عبد الواد كما انكسر لواؤه[1]. وليس ببعيد عن هذا، تجدر الإشارة إلى أنّ هناك معتقدات خرافية توارثتها بعض العناصر القبلية ببلاد المغرب الأوسط في عصره الوسيط، تتعلق بممارسات يُرام على كاهلها استجلاب النصر على الخصوم في حروبهم وتحقيق الغلبة عليهم؛ فيروى عن قوم "بني ورسيفان" أنّهم كانوا إذا أرادوا مباشرة القتال تقربوا بذبح بقرة سوداء للشياطين ويفتحون أوعية الطعام لهم في اعتقادهم أنّ الجن تمدّهم بالقوة والعون على الخصم وتأتي لنصرتهم إذا قدّموا لها القرابين[2]. كما يأتي النص النوازلي ليعضد جانبا من هذا، فبناءً على ما احتفظت به لنا مدونة الونشريسي، وقفنا على مسائل نزلت في هذا الشأن، ويتعلّق الأمر بحكم من يدعي معرفة وقت وقوع الفتن والأهوال ونزول المطر وما يستتر الله به من المغيبات، وحكم من يشتغل بالكهانة والتنجيم وضرب الخط، أو ما استعرضته عن أحكام التطير والتشاؤم والتفاؤل الغير محمود كالتفاؤل بالفقاع لجلب الرزق؛ حيث يشترون الفقاع في أول السنة ويفتحون فمه في البيت فيصعد ناحية السقف ويزعمون أن الرزق يُوسع عليهم تلك السنة[3].

قصارى القول، أنّه من البديهي أن تؤدي هذه الأزمات إلى تنامي هواجس الخوف لدى المجتمع والاجتهاد في ابداع سبل المقاومة والاحتراز، لكن شدّة وقعها

[1]– ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص293.

[2]– جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984،، ص313، تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الاسلامية والعلوم الانسانية، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص482.

[3]– الونشريسي، ج1، ص133، ج2، ص399.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

بشكل دوري على حياتهم أرغم التفكير العامي على الحياد عن جادة صواب العقل، والتشبث بسلوك خيالي خرافي. بما معناه؛ أنّ الأزمة مثّلت في حياة بعض الفئات الاجتماعية واقعا عصيبا لا تقدر القوى الطبيعية مجابهته، لاسيّما حين لم يجدوا الدعم الكافي من الجهات الوصية لتطبيب جرحهم. فكأننا نقول بأنّ الخرافة خرجت من رحم الأزمة برعاية المعاناة وكفالة المحن، وتوجيه من ضعف السلطة في مجابهتها وتوفير ظروف الراحة والتعايش الاجتماعي مع واقعها بتوفير مستلزمات الوقاية بما يكفي ويسع شتى شرائح المجتمع.

4. الخاتمـــة:

من النتائج التي تمّ تسجيلها في مسار بحثنا هذا:

– التشبّث بالمنقذ الغيبي ولو على غير هداية شرعية، والمبالغة في تقديس الأشخاص والتصديق بقدراتهم الخارقة إلى درجة الاعتقاد بسلطة خوارقهم وطلب نفعهم والاستغاثة بهم حتى بعد مماتهم.

– إسهام الظرفية العصيبة بكل مخرجاتها في تعطيل دور العقل وإيثار الوهم على الواقع، والتعليل الغيبي على العلمي.

– مثّلت الخرافة في بعض جوانبها وعي الإنسان بالمؤثرات التي حوله، وتحدّيا فكريا لتبرير سلوكه الاحترازي، وطبيعة البعد الفكري الذي اصطبغ به خياله، ونمطا من أنماط التفكير الروحي. فكأنّ الأزمة مجال حيوي لتفاقم الفكر الأسطوري الخرافي.

– لعب الخوف دورا محوريا في تحديد طبيعة السلوك المستنجد به لتلافي تبعات الأزمة والتخفيف من أضرارها.

– تلازمية التأثير بين الظرفية العصيبة ومفرزاتها ومظاهر التأثير على السلوك والمعتقد وطبيعة الاستجابة الفكرية والذهنية.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

– لم يكن الفكر الخرافي محصورا على فئة العوام المقهورين تحت جناح الأزمة، وإنّما كان له صدى حتى في ذهنيات بعض الخاصة من رجال الحكم والسياسة باعتماده كسبيل لضمان النصر على الخصوم في حربهم وملامسة الغاية من خوضها.

5. قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

– ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

– ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح، أمحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، المغرب، ط2، 1997.

– أبو حمو موسى الزياني: كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، المطبعة التونسية، تونس، 1279هـ/1861م.

– ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، ضبطه، خليل شحادة، راجعه، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1421هـ/2000م.

– ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، ج1، مطبعة بيير فونطانا الشرفية، الجزائر، 1322هـ/1904م.

– ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج4، تح، كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2010.

– ابن صعد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق، يحي بوعزيز، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الأبيار، الجزائر، ط1، 2002.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

– ابن قنفذ القسنطيني، أنسر الفقير وعز الحقير، صححه، محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

– ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ/2008.

– ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، 1336هـ/1908م.

– الباديسي عبد الحق، المقصد الشريف والمترع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تح سعد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1993.

– الصباغ القلعي محمد، مخطوط بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار.

– العبدري، الرحلة المغربية، تقديم، سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ /2007م.

– الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج2، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2، 1983.

– الونشريسي أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إخراج، محمد حجي وآخرون، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، (د.ط)، 1401هـ/ 1981م،

– مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، ج2، تح بوزياني الدراجي، بوزياني للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

ثانيا: المراجـــع:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

– البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية في سلوك وذهنيات الانسان في المغرب والأندلس (ق 6–8هـ/12–14م)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

– الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م.

– الدرع آمال، الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633–962هـ/1236–1555م)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2006.

– السواح فراس، مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة "سوريا أرض الرافدين"، دار علاء الدين، دمشق، 1996.

– أعدي علي، التخزين بالمغرب الوسيط والحديث: إسهام في دراسة تاريخ السلوكيات، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، المجلد الثالث، العدد الأول، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، 2019.

– الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تح، جعفر الناصر، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954.

– أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 2001.

– بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1987.

– بوتشيش ابراهيم القادري، اسهامات في التاريخ الاقتصادي–الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة جامعة مولاي اسماعيل، المغرب، 1997.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

– بوتشيش القادري، تاريخ الغرب الاسلامي، دار الطليعة للطباعة، بيروت، لبنان، 1994.

– بكاي عبد المالك، الحياة الريفية بالمغرب الأوسط 7–10هـ/13–16م، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، 2014.

– بن نية رضا: "صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الاسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80–362هـ /699–973م)"، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1427هـ/2006م.

– بولقطيب الحسين، جوائح وأوبئة عهد الموحدين، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، 2002.

– تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الاسلامية والعلوم الانسانية، الدار البيضاء، المغرب، 2010.

– جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

– روني باصي، أبحاث في دين الأمازيغ، تح، حمو بوشخار، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1

– شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثربولوجيا انجليزي عربي، جامعة الكويت، الكويت، 1981.

– عبد الشكور نبيلة، اسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الاسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع للهجرة (12–15م)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، الجزائر، 1429هـ/2008م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 03 السنة: 2021 الصفحة: 972– 1008 تاريخ النشر: 20–12–2021

– فضيلة عبد الرحيم، فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2009.

– فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية ثقافية)، ج2، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002.

– مرسيا إلياد، الأساطير والأحلام والأسرار، تر، حسب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2004.

– مزدور سمية، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588–927هـ/ 1192–1520م)، رسالة ماجستير، اشراف محمد الأمين بلغيث، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2009.